

## الصراع المذهبي وأثره في تحول المالكية ببلاد المغرب إلى العقيدة الأشعرية من القرن (3 - 6هـ/ 09 - 12م).

### *Doctrinal Conflicts and their Impact upon Religious Transformations: the Shift from the Maliki to Ashaari Creed in Maghreb, 9-12 AD.*

دين سايج.

المركز الجامعي نور البشير؛ البيض (الجزائر).

البريد الإلكتروني: [d.sayah@cu-elbayadh.dz](mailto:d.sayah@cu-elbayadh.dz)

تاريخ الإرسال: 21/05/06؛ تاريخ القبول: 21/06/02؛ تاريخ النشر: 21/06/25.

#### الملخص:

تتناول هذه المحاولة العلمية الصراع المذهبي وأثره في التحولات العقديّة لدى المالكية ببلاد المغرب الإسلامي، هذا الأخير اتخذته الحركة المذهبية مسرحاً لها منذ القرن الثاني الهجري (8م)، حيث سعى كل اتجاه مذهبي أو عقدي إلى توجيه المجتمع بما يساهم في توسيع دائرة تأثيره وانتشاره، ويقدر ما كان هذا المسعى يتطور كانت الخلافات المذهبية تتعمق، وتتحول تدريجياً إلى صراع مذهبي.

اتخذ الصراع المذهبي أبعاداً مختلفة أثرت على أتباع المذهب المالكي، وجرتهم تدريجياً للتحول باتجاه العقيدة الأشعرية، وللكشف عن مجريات وأبعاد هذا التحول ترتب علينا الكشف عن مظاهر

الصراع، وتأثيراته من الناحية الفكرية والمنهجية على المالكية، ثم رصد مظاهر التحول واستخلاص نتائجه وأبعاده، وفي الأخير خلصت هذه المحاولة إلى جملة من النتائج.

**الكلمات المفتاحية:** الصراع المذهبي؛ المذهب المالكي؛ المغرب الإسلامي؛ التحولات العقدية؛ الأشعرية.

### **Abstract:**

This scientific attempt is intended to shed light upon sectarian conflict and its impact on the ideological transformations among Maliki sects in Maghreb. Since the second Hijiri century, the sectarian movement has set this region, Maghreb, as its chief stage where it worked on how to orient and make up both minds and hearts in an effort to disseminate its values and ideals. This in fact deepened doctrinal disagreements if not led to sectarian conflicts and confrontations.

Generally speaking, the evolution of sectarian conflict has deeply affected the Maliki adherents the fact that gradually dragged them to Ashaari creed. It was really a notable change. In order to review the course of this change and its perspectives, it was needed to explore the characteristics of the conflict, and its impact on the ideological and organizational character of the Maliki School. Analyzing these transformations, events and other issues might help us deduce some conclusions

**Keywords:** sectarian conflict; Maliki doctrine; Islamic Maghreb; religious transformations; Ashaari Creed.

مقدمة:

تعتبر دراسة تاريخ الفكر المذهبي من الجوانب الهامة والحساسة في التاريخ الإسلامي، فهي تساعدنا على فهم وتفسير عديد التحولات الفكرية والاجتماعية وحتى السياسية في التاريخ الإسلامي بصفة عامة، وتاريخ المغرب الإسلامي بصفة خاصة، هذا الأخير الذي حوّلتته الحركة المذهبية والفرق العقديّة إلى ساحة صراع مذهبي، وموضوع دراستنا يندرج في هذا الإطار، حيث يتناول ظاهرة الصراع المذهبي وأثرها في تحول المالكية إلى العقيدة الأشعرية في الفترة الممتدة ما بين القرنين (3 - 6هـ / 09 - 12م).

وتكمن أهمية الموضوع في كونه يعالج ظاهرة فكرية واجتماعية، كثيرا ما تبرز في تاريخنا الإسلامي، وتفرض نتائج مؤثرة في واقع مجتمعاتنا، سواء في الماضي أو الحاضر، ألا وهي ظاهرة الصراع المذهبي والتحوّلات العقديّة، وهذا ما يجعلنا في مواجهة إشكالية أساسية مفادها: إلى أي مدى تحكّمت حالة الصراعات المذهبية في توجيه خياراتنا الفكرية والفقهية والعقدية؟ وما هي أبرز تجليات حالة الصراع في إعادة صياغة الموقف العقدي للسنة؟

وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن طبيعة العلاقة بين الصراع المذهبي والتحوّلات العقديّة، من خلال التجربة التاريخية للمالكية في بلاد المغرب الإسلامي، ولتحقيق هذا الهدف ترتب علينا، البحث عن مظاهر وأوجه الصراع المذهبي، والكشف عن تأثيره في توجيه المالكية إلى تبني العقيدة الأشعرية، وفي الختام تخلص الدراسة إلى جملة من النتائج.

## 1 - الصراع المذهبي في بلاد المغرب الإسلامي (ق3 - 6هـ):

إختلف المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ في العديد من القضايا، السياسية، الفقهية والعقدية، هذا الاختلاف لم يتناول أركان الدين وأصوله العامة، لكنه في نفس الوقت أدى إلى نشأة اتجاهات مذهبية في السياسية والفقه والعقائد، (أبو زهرة، 1996: 11) فظهر الاتجاه الخارجي منذ سنة (657/هـ 37م) في خضم الفتنة الكبرى بين الصحابة، ثم ظهر الاتجاه الشيعي بعد حادثة كربلاء سنة (681/هـ 61م).

أما الاتجاه الوسط الذي يمثل الأغلبية والمعروف في التاريخ الإسلامي بأهل السنة والجماعة، فلم يظهر كمصطلح إلا في أواخر القرن الثاني الهجري (ق 8م)، لكن جذوره كموقف وسط بين الخوارج والشيعة تعود إلى عام الجماعة (41هـ / 661م) (الطبري، 1979: 93 - 95).

**1- 1- توسع الحركة المذهبية في المشرق باتجاه بلاد المغرب الإسلامي:**  
انتشرت الاتجاهات المذهبية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، فوصلت إلى بلاد المغرب الإسلامي، بعد أن تفرعت عنها مذاهب وفرق سياسية وعقدية، وحتى فقهية جديدة، واتخذت ألقابا ومسميات جديدة، فوصلت الصفرية والإباضية، وهي في أصولها امتداد للاتجاه الخارجي، ثم وصلت المذاهب الفقهية السنية ممثلة في المذهب الحنفي والمذهب المالكي، أما المذهب الشافعي والحنبلي فإن تأثيرهما كان محدوداً في بلاد المغرب، في حين تأخر دور المذهب الظاهري حتى قيام دولة الموحدين في القرن السادس الهجري (12م).

أما الاتجاه الشيعي فقد وصل ممثلاً في مذهبين، المذهب الشيعي الزيدي القريب من أهل السنة والجماعة (أبو زهرة، 1996: 633-642)، ولحق به التشيع الإسماعيلي الباطني المناقض للطرح الخارجي، والسني - على اختلافهما - سواء من الناحية السياسية، أو العقدية وحتى الفقهية (الشهرستاني، 2005: 124)، إلى جانب هذه الاتجاهات المذهبية العامة، وصلت إلى بلاد المغرب الإسلامي آراء المدارس الفكرية العقدية، كالمعتزلة (البغدادي، 2008: 112-116)، والمرجئة منذ القرن الثاني للهجرة، وفي منتصف القرن الرابع منه بدأت تصل تأثيراً المدرسة الأشعرية، التي أعقبها انتشار التصوف.

أما عن الطرق والأساليب والأدوات التي نفذت بها تأثيرات هذه الاتجاهات المذهبية والمدارس الفكرية إلى المجتمع المغربي، فقد كانت متعددة ومتداخلة، بحيث لا يمكن الفصل بينها إلا لدواعي منهجية لتسهيل الفهم والدراسة، ولعل أبرزها هذه الطرق والأساليب والأدوات، توجيه الدعاة، رحلات طلاب العلم والعلماء، الكتب، وحتى انتقال الجند، والولاء السياسي للقوى الكبرى في المشرق الإسلامي.

## 1- 2- الخريطة المذهبية في بلاد المغرب:

لقد كان من الطبيعي أن تتقل هذه الاتجاهات المذهبية والمدارس الفكرية والعقدية خلافاتها وتناقضاتها أينما حلت، وهذا ما سيظهر بالفعل في المجتمع الإسلامي المغربي منذ مطلع القرن الثاني للهجرة، حيث انتشرت الحركات الخارجية، الصفرية والإباضية، وعبرت عن مواقفها السياسية والعقدية بسلسلة من الثورات منذ أواخر

العهد الأموي، واستمرت حتى منتصف القرن الثاني الهجري، وتمكنت من تأسيس عدة دويلات في بلاد المغرب، منها الإباضية كدولة أبي الخطاب المعافري (140 - 144هـ/757 - 761م) بإقليم طرابلس وجبل نفوسة جنوب المغرب الأدنى، والرستمية (160 - 296هـ/777 - 909م) في المغرب الأوسط الذي كان يعرف "بلاد المغرب" (Tadeusz, 1962: 513- 535).

أما الصفيرية فأُسست دولة أبي قرة اليفريني في نواحي تلمسان (148 - 172هـ/765 - 788م)، ثم دولة بني مدرار وعاصمتها سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى (140 - 296هـ/757 - 909م) (التليسي، 2003: 49 - 51)، أما إفريقية فقد بقيت مرتبطة سياسيا ومذهبيا بالخلافة العباسية السنية، وحتى الأدارسة وإن اختلفوا مع العباسيين سياسيا ومالوا إلى الطرح الزيدي العلوي عقدياً، إلا أنهم كانوا على رأي أهل السنة والجماعة فقهيّاً.

في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث للهجرة ازدهرت الحياة الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي وظهرت فيه حواضر علمية مهمة، أبرزها القيروان وتونس بافريقية، وتاهرت الرستمية في المغرب الأوسط، والتي كانت روحيا مرتبطة بجبل نفوسة في إقليم طرابلس جنوب المغرب الأدنى، في حين برزت فاس عاصمة الأدارسة بالمغرب الأقصى بمركزها العلمي المتمثل في جامع القرويين، أما سجلماسة عاصمة بني مدرار فإن المصادر المتوفرة لدينا لم تسعفنا لبلورة رؤية واضحة عن الحياة الفكرية فيها باستثناء إشارات في بعض المصادر الإباضية أو السنية (ابن خلدون، 2010: 170 - 174)، في هذه الحواضر

الكبرى كان يجري السجال الفكري بشكل تفاعلي بين مختلف الاتجاهات المذهبية والفرق العقدية، ومهما بيدوا أنه تميز بجانب من الموضوعية والهدوء حتى أواخر القرن الثاني الهجري، إذا ما استثنينا ثورات الصفرية والإباضية، فإن التوتر أصبح واضحاً في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجريين(9م).

رغم أن السلطة السياسية في هذه الحواضر كانت قد حددت خياراتها من الناحية السياسية والمذهبية، إلا أنها لم تتخذ مواقف عدائية من مواطنيها المخالفين لها في توجهاتها المذهبية السياسية، أو العقدية والفقهية، ففي كنف الدولة الأغلبية ازدهرت الحياة الفكرية، وتعددت المذاهب والمناظرات والمجالس العلمية، فساد المذهب الحنفي إلى جانب المالكي، كما وجد فقهاء وأتباع الإباضية والصفرية، وشاع الاعتزال خاصة في مطلع القرن الثالث الهجري، بعد أن تبناه أمراء بني الأغلب مقتدين بخلفاء بني العباس في بغداد وتعبيراً عن الولاء السياسي لهم، خاصة في عهد أبناء هارون الرشيد الخليفة، المأمون (198 - 218هـ/814 - 833م)، ثم أخيه المعتصم بالله، وحتى سنة (227هـ/842م) (المجدوب، 1975: 65).

ونفس الظاهرة من التنوع الفكري والتسامح المذهبي نجدها تسود في تاهرت الرستمية، وفاس الإدريسية، حيث يذكر ابن الصغير في وصفه للإباضية في تاهرت قوله: « ليس أحد ينزل بهم من الغريباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته...»(ابن الصغير، 1986: 65)، إن الإمام المقصود بهذا الوصف هو عبد الرحمان بن رستم(160 -

170هـ/777 - 786م)، لكن هذا الوضع لم يتغير كثيرا حتى في عهد خلفائه، كابنه عبد الوهاب وحفيده أفلح بن عبد الوهاب (170 - 258هـ/786 - 872م) (Tadeusz, 1962: 513- 535). في فاس قويت الدولة وانتعشت فيها الحياة الفكرية في أواخر القرن الثاني الهجري ومطلع القرن الثالث، رغم التوجه العلوي الزيدي للدولة، إلا أنها حددت خيارها المذهبي على المستوى الفقهي والعقدي على أساس اتباع السنة، ويظهر ذلك جليا في خطبة إدريس الثاني (الابن) عند استحداث مدينة فاس حيث قال: «اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها...» (السنوسي، 1930: 73).

تدعم هذا التوجه السني بالمهاجرين من الأندلس منذ (202هـ/817م)، وكان من بينهم الفقهاء من أمثال يحيى بن مضر القيسي ومالك بن يزيد التجيبي وأبو كعب بن عبد البر، كما هاجر إليها من إفريقية المالكية خاصة سنة (210هـ/825م)، الذين سمح لهم إدريس الثاني بأن يختطوا عدوة القرويين، التي سيقام فيها لاحقا مسجد القرويين، كأهم مركز علمي سني مالكي في المغرب الأقصى، وكان من بين المهاجرين الكثير المحدثين والفقهاء. (نور الهدى بوخالفة، 1995: 436)، كما وجد في فاس الاعتزال، الذي تعود جذوره في المنطقة إلى فترة ما قبل مجيء إدريس الأول إلى المغرب الأقصى، حيث نزل هذا الأخير في ضيافة إسحق الأوربي، زعيم قبيلة أوربه البربرية التي كانت على عقيدة الاعتزال (إسماعيل، 1991: 57)، أما الحضور الخارجي في شمال المغرب الأقصى فقد تراجع بشكل واضح

خاصة بعد فشل تجربة الصفرية في الحفاظ على استمرار وجود دولة أبي قررة في ضواحي تلمسان (Gautier(E.F), 1964: 299).

في جنوب المغرب الأقصى تمكن الصفرية من تأسيس مدينة سجلماسة، واتخذوها عاصمة لدولتهم المعروفة باسم دولة بني مدرار، هذه الدولة ذات الأصول الخارجية (Mercier, 1888:282) كانت تتعايش فيها مختلف الاتجاهات المذهبية، الإباضية والصفرية، وكانت رحلة القوافل لا تتقطع بينها وبين جيرانها من الرستميين والأدراسة، مما يدل على روح التعايش التي طبعت العلاقات بين دول وسكان بلاد المغرب في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجريين رغم الاختلافات المذهبية، وحدوث بعض الاصطدامات المحدودة (محمود، 1985: 294؛ Mercier, 1888:282).

لكن هذا لا يعني أن أتباع هذه المذاهب تمكنوا من حلّ خلافاتهم وتجاوز تناقضاتهم، وإنما يعني أن حالة من الاستقرار والسلم الاجتماعي قد حلت ببلاد المغرب الإسلامي، بعد أن شعر كل اتجاه مذهبي بأنه حقق جانبا من طموحاته السياسية والعقدية، كما أن حالة الرخاء الاقتصادي التي عرفتھا المنطقة في هذه الفترة أسهمت بقسط وافر في حالة السلم الاجتماعي، وربما حتى التسامح الفكري (ابن الصغير، 1986: 36 - 37).

إن أبرز ما يمكن ملاحظته، بعد هذا العرض، أن مجتمع المغرب الإسلامي في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين كان في حالة من التفكك السياسي والمذهبي، لكن هذا الأمر لم يمنع من تحقيق حالة من الرخاء الاقتصادي والسلم الاجتماعي لفترة

معينة استمرت حتى منتصف القرن الثالث الهجري، لكن بدرجات متفاوتة، بحسب الظروف الداخلية التي كانت تعيشها كل دولة.

### 1- 3- مظاهر الصراع المذهبي:

تدرجياً بدأت الخلافات المذهبية تطفوا على السطح، وتتخذ طابع الصراع المذهبي العنيف، هذا العنف الذي أصبح يهدد وحدة المجتمع والدولة، بل تعدى الأمر ذلك إلى تفكك هذه الاتجاهات والفرق العقيدية نفسها، إلى فرق ومذاهب متناحر لأبسط الاختلافات. لقد كانت إفريقية أهم حاضرة علمية إسلامية في بلاد المغرب، خاصة في القرن الثالث والرابع الهجريين، وفيها جرت العديد من الأحداث ذات الصلة بالصراع المذهبي، فإلى جانب الخلافات المبدئية بين الاتجاه السني ومخالفيه من الخوارج والمعتزلة والشيعة، نشأ الخلاف بين المذاهب السنية نفسها، ونقصد بذلك الخلاف بين المالكية والأحناف الذي نشب بسبب رغبة كل جهة كسب أكبر قدر من الأتباع، وبالتالي السيطرة على الحياة الفكرية وتوجيهها، بما يضمن لها سعة الانتشار في المجتمع، وتحقيق مكاسب اجتماعية وحتى سياسية (المجدوب، 1975: 63).

وإذا ما تحولنا إلى تاهرت الرستمية، أو سجلماسة، وحتى فاس الإدريسية، فإننا نجد السُّنة أحناف ومالكية في مناخ فكري يهيمن عليه الخوض في الجدل، بسبب النفوذ الواسع للإباضية والصفيرية والمعتزلة، هذه الفرق التي نشأت في الأساس نتيجة لخلافات سياسية وعقدية، وظل الجدل محور اهتماماتها (حمدة، 1986: 303- 304).

رغم أن الموقف المبدئي للاتجاه السني، يقوم على أساس عدم الخوض في الجدل بصفة عامة والعقائد بصفة خاصة، إلا أنهم وجدوا أنفسهم في مناخ فكري وسياسي فرض عليهم الخوض في هذه المسائل، مما جرّ المالكية إلى بعض المراجعات الفكرية التي مست المنهج الفقهي للإمام مالكؒ، بما يسمح للفقهاء بالخوض في الجدل العقدي دفاعاً عن المفاهيم الأساسية للمذهب، وحماية لأتباعه من تأثير مقولات الفرق العقدية المخالفة (المالكي، 1994: 443 - 448).

وفي هذا الصدد ترك محمد بن سحنون (ت 256هـ/870م) عدة مؤلفات في الدفاع عن المذهب المالكي من أشهرها " كتاب الحجة على القدرية"، و"كتاب الرد على أهل البدع" وغيرها، ومن علماء المالكية الذين خاضوا في مسائل مرتبطة بعلم الكلام، نذكر عون بن يوسف (ت 239هـ/853م)، وأبو العباس عبد الله بن طالب (ت 276هـ/889م)، أبو بكر بن القمودي، وعلي بن منصور الصفار، وأبو بكر بن اللباد (ت 333هـ/945م) (المالكي، 1994: 42)، لكن يبقى أشهر علماء السنة في الردّ على المخالفين، أبو عثمان سعيد بن الحداد (ت 302هـ/914م)، وهذا بحسب ما تصوره المصادر المالكية، وإن كانت هذه الصورة مبالغ فيها بعض الشيء، ومن أبرز مؤلفاته في هذا الشأن " كتاب الاستواء" في الرد على الملحدين، برز سعيد بن الحداد في مناخ الصراع الفكري الذي فرضه قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب في الفترة ما بين (297 - 361هـ/909 - 972م)، ويعد هذا المتغير عاملاً حاسماً في اقناع المالكية بضرورة اكتساب أدوات منهجية جديدة للدفاع عن معتقداتهم في مواجهة

الدعوة الشيعية الإسماعيلية، ذات الأبعاد العقيدية العقلية والفلسفية الغامضة.

وما يهمنا في هذا الشأن هو أن أهل السنة خاصة المالكية منهم دخلوا مرحلة التحول الفكري والمنهجي، متأثرين بمناخ الصراع المذهبي، ومهما تشبثوا بأرائهم العقيدية المستمدة من الكتاب والسنة على منهج أهل الحديث، إلا أنهم دخلوا مرحلة التأثر والتحول العقدي والخوض في علم الكلام والجدل العقيدي والتأويل ولو بشكل غير مباشر (حمدة، 1986: 47).

## 2 - تحول المالكية باتجاه العقيدة الأشعرية:

اتخذ الصراع المذهبي أبعاداً خطيرة بعد أن أصبحت السلطة الحاكمة طرفاً مباشراً فيه في عهد الفاطميين ومن بعدهم الزييريين، أو حتى في عهد الحماديين والمربطين والموحدين.

### 2- 1 - أثر السياسة الدينية الفاطمية في التحول العقدي عند المالكية:

بدأت التحولات العقيدية تفرض نفسها في واقع مجتمع المغرب الإسلامي، وقد كان للسياسة الدينية التي انتهجها الفاطميون دوراً أساسياً في ذلك، حيث عمد الفاطميون منذ نجاح دعوتهم في أواخر الثالث الهجري إلى انتهاج سياسة ترمي إلى نشر مذهبهم بكل الطرق والأساليب، ومن بينها النشاط الدعوي بهدف اقتناع أتباع المذاهب المخالفة لهم بتبني مذهب الشيعة الإسماعيلية، ولهذا الغرض أسس الفاطميون جهازاً دعوياً متكاملاً، كان ينشط في جميع الحواضر التابعة لهم، يشرف عليه الخليفة شخصياً في عاصمة ملكه، سواء في بلاد المغرب أو في مصر بعد الانتقال إليها (الحاجري، 1983: 36)، وقد

ينوب عنه قاضي القضاة، ومن أشهرهم في تاريخ الدولة الفاطمية، القاضي النعمان ابن حيون المغربي (ت 363هـ/974م) (سايح دين، 1915 -1916: 173-174).

وقد جمع لنا القاضي النعمان جانبا من نشاط مجالس الدعوة في عهد الخليفة الرابع الملقب "بالمعز لدين الله الفاطمي" (341 - 365هـ/952-976م)، في "كتاب المجالس والمسائرات"، وفيه يعرض لقضايا عقدية بهدف الدعوة للمذهب الشيعي الإسماعيلي، كما يتناول بعض الجوانب التوجيهية في السلوك الدعوي، ويمكننا أن نستفيد من هذا الكتاب في بعض الجوانب المتصلة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي وحتى الثقافي لبلاد المغرب في هذه الفترة (النعمان، 1996: 17-19). كما لجأ الفاطميون إلى أسلوب المناظرات الفكرية، وواجهوا فقهاء أهل السنة بصفة عامة، والمالكية بصفة خاصة برؤى عقدية فلسفية لم يألفها المالكية لرفضهم الخوض فيها سابقا، ومن أشهر المناظرات في هذا الشأن تلك التي جرت بين أبي العباس أخو أبو عبد الله الشيعي والفقير المالكي، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الضبي، المعروف بابن البرذون (ت 297هـ/909م)، كما سمحت هذه المناظرات ببروز الفقيه الحنفي سعيد بن الحداد (ت 302هـ/914م) مما أعطاه سمعة في تاريخ المالكية. قرّبت المحنة بين المالكية والأحناف الذين ثبتوا على مذهب السنة (حوالة، 2000: 117)، أما بعض الأحناف الذين تشرّقوا، أي مالوا لعقيدة الشيعة أو والوهم خوفا من بطشهم، أو طمعا في بعض المكاسب، فقد مرققوا من الدين في نظر المالكية (الخشني، 1993: 183، 191-192).

لجأ الفاطميون إلى أساليب كثيرة للحدّ من نشاط المعارضة المالكية لسياساتهم الدينية، منها منع فقهاء المالكية من الخطابة، الصلاة بالناس، وحتى التدريس، وكثيراً ما تعرض فقهاء المالكية للسجن والتعذيب، وحتى القتل (المالكي، 1994: 135-136)، هذا الموقف المتشدد من طرف الفاطميين، ضد رعاياهم من المالكية هو الذي دفع فقهاء القيروان إلى التحالف مع أبي يزيد مخلد بن كيداد الإباضي النكاري سنة (333هـ/945م)، رغم الاختلافات العقدية العميقة بين الطرفين (سايح دين، 1915 - 1916: 78).

خرجت جميع الأطراف من إباضية وشيعة وسنة منهكة، سياسياً، فكرياً واجتماعياً، بعد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد سنة (336هـ/947م)، فبدأ كل اتجاه مرحلة مراجعة فكرية لمواقفه السياسية والعقدية، وما يهمننا في هذا المقال تلك المراجعات التي ستبدأ بوادها تظهر تدريجياً عند المالكية، وهي مؤشرات أولية للتحويلات العميقة القادمة (سايح دين، 1915 - 1916: 242).

## 2- 2 - مظاهر وأدوات التحول العقدي عند المالكية:

بدأت التحويلات العقدية لما استساغ بعض فقهاء المالكية الخوض في الجدل دفاعاً عن آرائهم العقدية، منذ عهد الإمام محمد بن سحنون (ت 256هـ/870م)، وقد زادت حاجتهم للمنهج الجدلي العقلي عندما واجههم الشيعة الإسماعلية بعقائدهم الفلسفية العقلية، كما أن ظروف المحنة التي فرضتها عليهم الدولة الفاطمية (296 - 361هـ/909 - 972م)، دفعتهم إلى تقديم بعض التنازلات في مواقفهم السياسية والعقدية، سواء باتجاه الإباضية أو حتى الشيعة الإسماعلية،

هذه التنازلات كانت ضروري لجميع الاتجاهات المذهبية كي تحافظ على بقائها، ويسود السلام والتعايش في المجتمع (Gautier(E.F),1964:369).

لم تكن مسألة الخوض في الجدل والتحويلات العقدية ظاهرة يختص بها المالكية في بلاد المغرب فقط، بل حتى المشرق كان يشهد هذه التحويلات والصراعات المذهبية، وفي هذا الشأن برزت شخصية أبي الحسن الأشعري (ت 324هـ/936م)، الذي عاش في بغداد، وتربى على عقيدة الاعتزال لمدة أربعين سنة، هذه العقيدة القائمة على أساس تحكيم العقل في النقل (النص الديني)، ومن أبرز أدواتها المنهجية استخدام التأويل من أجل الوصول إلى استنتاجات توافق العقل دون أن تتكرر النقل (البغدادي، 2008: 112 - 116).

تراجع أبو الحسن الأشعري عن الاستنتاجات العقدية التي توصل إليها المعتزلة، وتبنى عقيد أهل الحديث، القائمة على أساس الأخذ بظاهر النصوص دون تعطيل ولا تأويل (أبو زهرة، 1996: 168)، وانبرى للدفاع عن عقيدة أهل السنة في مواجهة المعتزلة، والرافضة وباقي الفرق العقدية المخالفة، فألف في الرد على المعتزلة والقدرية كتاباً في "خلق الأعمال"، كما ألف كتاباً في الصفات، وآخر في "إيضاح البرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان"، و"رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام"، ويعد مؤلفه الموسوم بعنوان "كتاب الإبانة عن أصول الديانة"، المؤلف الأكثر تعبيراً عن تمسك الأشعري بعقيدة أهل الحديث وفي مقدمتهم الإمام أحمد ابن حنبل (بدوي، 1997: 506).

نال الأشعري شهرة كبيرة بين أهل السنة بسبب قدرته العقلية في الدفاع عن المواقف العقدية السنية، ولم ينتسب لمذهب بعينه، فأخذ عنه

طلاب العلم من مختلف المذاهب السنية، من شافعية ومالكية وحنفية، وحتى الحنابلة، رغم انكار بعضهم لبعض مقولاته، فكانت النتيجة أن انتشر منهجه بين مختلف المذاهب السنية (المنصوري، 2003: 71 - 98).

ومن أبرز طلبة الأشعري وأكثرهم تأثيراً في التوجه العقدي للمالكية في بلاد المغرب أبو بكر الباقلاقي (ت 403هـ/1012م)، الذي رحل إليه طلاب العلم من بلاد المغرب، فأخذوا عنه المذهب المالكي في الفروع، والعقيدة الأشعرية في الأصول، ومن بينهم عبد الجليل بن أبي بكر الربيعي المعروف بالديباجي، وابن الصابوني، كما أخذ عن الباقلاقي أبو عمرو عميران الفاسي (ت 430هـ/1039م) (التهامي، 2006: 14 - 15).

أرسل الباقلاقي بعض تلاميذه إلى بلاد المغرب، منهم أبو طاهر البغدادي، والحسين بن عبد الله بن حاتم الأذري الذي استوطن القيروان، وفي نفس الوقت وصلت بعض مؤلفات الباقلاقي إلى بلاد المغرب، ومؤلفات بن فورك (ت 406هـ/1015م)، منها كتاب "تأويل مُشكّل الحديث"، وكتاب "إعتقاد الموحدين" (التهامي، 2006: 19).

كما وصلت تأثيرات الأشعرية إلى بلاد المغرب عن طريق عالم آخر هو أبي ذر الهروي (ت 434هـ/1043م)، الذي انتقل إلى الحرم المكي، فاتصل به أهل المغرب وأخذوا عنه المنهج الأشعري، قال عنه الذهبي (ت 748هـ): «أخذ الكلام ورأي أبي الحسن عن القاضي أبي بكر بن الطيب، وبث ذلك بمكة وحمله عنه المغاربة...» (الذهبي، 1983: 557)، وقد أكد بن كثير هذا بقوله: «وأخذ عنه المغاربة مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري عن القاضي الباقلاقي» (ابن كثير، 1997: 688).

وعن الهروي أخذ أبو عمران الفاسي، أما أبو الحسن القابسي (ت403/1012م) فكانت له صلوات علمية وثيقة بتلاميذ أبي بكر الباقلائي، ومنهم الهروي، وكان كثيراً ما يعبر عن إعجابه بأبي الحسن الأشعري (التهامي، 2006: 19).

ويبدو أن الأشعرية حققت انتشاراً واسعاً في بلاد المغرب، وما يؤكد ذلك شهادة أحد أبرز علمائها في مطلع القرن السادس الهجري، ألا وهو الإمام المازري (ت536/1142م)، الذي قال عن المالكية أنهم لا يرون مخالفة أبي الحسن لا في النقيرو ولا في القطمير، (المنصوري، 2003: 71 - 98)، أي لا في القليل ولا في الكثير، ومن مؤلفات المازري التي تؤكد تأثر المالكية القوي بالأشعرية وحتى التصوف مؤلفه الموسوم بـ "شرح البرهان للجويني".

كما وصلت تأثيرات الأشعرية إلى بلاد المغرب الإسلامي عن طريق مؤلفات الإمام أبي المعالي الجويني (ت478/1085م)، ومن أهم مؤلفاته "كتاب الإرشاد" و "كتاب البرهان"، وفي نفس الوقت رحل بعض طلبة العلم إلى الجويني فأخذوا عنه وحاولوا نشر طريقته، وأبرزهم أبو بكر بن العربي (ت543/1148م)، الذي أخذ عن أشهر طلبة الجويني أبي حامد الغزالي (ت505/1111م)، ومن أبرز مؤلفات الغزالي التي أثرت في أهل المغرب، كتاب "إحياء علوم الدين" (المنصوري، 2003: 71 - 98). كما ادعى المهدي بن تومرت (ت524/1130م) أنه أخذ عن أبي حامد الغزالي، والواقع أنه وجد في العراق بالمشرق مناخاً فكرياً يعج بالأفكار والمعتقدات المختلفة أبرزها

الأشعرية، فتبناها، كما تبنى جانباً من الأفكار ذات الصلة بالتصوف، والتشيع الباطني(النجار، 1983: 72 - 76).

قبل أن يستتب سلطان المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري، كانت الأشعرية قد عرفت طريقها إلى مجالس العلم في بلاد المغرب الإسلامي، فانتشرت مؤلفاتها، ومقولاتها بين طلاب العلم، بتأثير من علماء المشرق، لكن الملفت للانتباه هو أن علماء الأشعرية المتأخرين سواء في المشرق، أو المغرب قد جمعوا في ثقافتهم بين العقيدة الأشعرية والتصوف، وجنحوا إلى الإفراط في التأويل، فابتعدوا نسبياً عن عقيدة أبي الحسن الأشعري، وفي نفس الوقت عن معتقد أهل الحديث(المنصوري، 2003: 15)، وهذا ما دفع المرابطين إلى اتخاذ مواقف متشددة من رموز الأشعرية ومؤلفاتهم، خاصة أبي حامد الغزالي، كما كانت للمرابطين دوافع أخرى لا يتسع المقال لشرحها، من بينها الرؤية النقدية التي عبّر عنها الغزالي اتجاه الفقهاء بصفة عامة، والمقربين من السلطان -كفقهاء المرابطين - بصفة خاصة(الغزالي، 2005: 32 - 33).

ولما جاء المهدي بن تومرت بدعوته إلى بلاد المغرب في مطلع القرن السادس الهجري (512هـ/1118م)، وجد الظروف مهيأة للإقبال على العقيدة الأشعرية المشبعة بالتصوف، فبشر بها، وتبناها عقيدة لدولة الموحدين.

### خاتمة:

وقد خلصت الدراسة إلى جملة النتائج من أهمها، أن الاتجاهات المذهبية والفرق العقيدية التي نشأت في المشرق، تمكنت من استغلال

بلاد المغرب الإسلامي ومجتمعها كمجال خصب لانتشارها وتصفية خلافاتها السياسية والعقدية، رغم أن هذا الوضع ساهم في تنشيط الحركة الفكرية في فترة معينة، إلا أنه سرعان ما جرّ المجتمع إلى حالة من الجدل الفكري، والصراع السياسي والمذهبي، وحتى العرقي. أدّت حالة تصاعد الصراع المذهبي إلى فقدان الأمن والاستقرار، وتراجع روح التسامح والعدالة في المجتمع، وامتدّت مختلف الاتجاهات المذهبية والفرق العقدية عند استضعافها.

رغم أن الموقف المبدئي للمالكية يقوم على رفض الخوض في الجدل العقدي والتأويل الرمزي، إلا أن ظروف الصراع المذهبي جرّتهم إلى بعض المراجعات المنهجية والفكرية، تجسدت في تقبل علماء المالكية الخوض في علم الكلام ومحاولة التوفيق بين العقل والنقل، والأخذ بمنهج التأويل، مما هيأهم مستقبلاً لتحولات أعمق، قربت المسافة بينهم وبين مخالفيهم، ومهدت لتحولهم باتجاه العقيدة الأشعرية. إن تبني المالكية للعقيدة الأشعرية حقق نوعاً من التوافق الفكري العقدي في المجتمع، بين مختلف الاتجاهات المذهبية، وقد تجسد ذلك بوضوح ظل دولة الموحدين في القرن السادس الهجري.

### قائمة المصادر والمراجع:

#### 1 - باللغة العربية:

- 1 - أبو حامد الغزالي، (2005)، إحياء علوم الدين، ج1، الجزائر: دار الأصاله.
- 2 - أبو زهرة، الإمام محمد (1996)، تاريخ المذاهب الإسلامية، القاهرة: دار الفكر العربي.
- 3 - اسماعيل عبد الرزاق، محمود، (1985)، الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء: دار الثقافة.

- 4 - بدوي، عبد الرحمان، (1997)، مذاهب الإسلاميين، بيروت: دار العلم للملايين.
- 5 - البغدادي، عبد القادر بن طاهر، (2008)، الفرق بين الفرق، بيروت: دار المعرفة.
- 6 - بوخالفة، نو الهدى، (1995)، أنساب القبائل العربية المهاجرة بمواليها إلى بلاد المغرب في القرون الأربعة الأولى، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة وهران، الجزائر.
- 7 - التليسي، بشير رمضان، (2003)، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ليبيا: دار المنار الإسلامي.
- 8 - التهامي، إبراهيم، (2006)، الأشعرية في المغرب، الجزائر: دار قرطبة.
- 9 - الحاجري، محمد طه، (1983)، مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، بيروت: دار النهضة.
- 10 - بن حمدة، عبد المجيد، (1986)، المدارس الكلامية إلى ظهور الأشعرية، تونس: دار العرب.
- 11 - حوالة، يوسف بن أحمد، (2000)، الحياة العلمية في إفريقية، ج 2، مكة: مركز البحوث والدراسات الإسلامية.
- 12 - الخشني، محمد بن عبد السلام، (1993)، طبقات علماء إفريقية، القاهرة: مكتبة مدبولي.
- 13 - ابن خلدون، عبد الرحمان، (2010)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 6، بيروت: دار الفكر.
- 14 - الذهبي، شمس الدين، (1983)، سير الأعلام النبلاء، ج 17، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- 15 - سايح، دين، (1915 - 1916)، الاتجاهات المذهبية ودورها في التطور الثقافي بالمغرب الأوسط ما بين القرنين 3هـ و 6هـ. رسالة دكتوراه، غير منشورة في التاريخ الوسيط، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر.

- 16 - السنوسي، علي الخطابي الإدريسي (1930)، الدرر السنوية في أخبار السلالة الإدريسية، مصر: مطبعة الشباب.
- 17 - ابن الصغير، (1986)، أخبار الأئمة الرستميين، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 18 - الطبري، محمد بن جرير، (1979)، تاريخ الأمم والملوك، ج6، بيروت: دار الفكر.
- 19 - القاضي النعمان، ابن حيون، (1996)، كتاب المجالس والمسائرات، لبنان: دار المنتظر.
- 20 - ابن كثير، اسماعيل، (1997)، البداية والنهاية، المجلد 15، جيزة: دار هجر للطباعة والنشر.
- 21 - لقبال، موسى، (1984)، المغرب الإسلامي من بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 22 - المالكي، أبو بكر عبد الله، (1994)، كتاب رياض النفوس، المجلد ج1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 23 - المجذوب، عبد العزيز، (1975)، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تونس: الدار التونسية للنشر.
- 24 - محمود، إسماعيل، (1991)، الأدارسة (172 - 375) حقائق جديدة، القاهرة: مطبعة مدبولي.
- 25 - المنصوري، المبروك، (2003)، "الأشعرية في بلاد المغرب إلى نهاية القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي ومفهوم الأدوار الحضارية." مجلة الآداب العربية، تونس: العدد 66، ص.ص 71 - 98.
- 26 - النجار، عبد المجيد (1983)، المهدي بن تومرت، حياته وأرؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 27 - الهنتاتي، نجم الدين، (2004)، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، تونس: تهر الزمان.

**1 - باللغة الأجنبية:**

28- Gautier(E.F) , *le passé de L'Afrique du Nord,les siècle obscures*, Petit Bibliothèque Payot, (1964), Paris.

29- Mercier, E, *L'Afrique Septentrionale ( Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Français 1830* (Vol. Premier ; Enest Leroux éditeur), (1888), Paris.

30- Tadeusz, L, l'Etat nord- Africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du 8eme au 9e siècle, (u. d. Cracovie, Éd) *Cahier d'Etudes Africain* , (1962), 2 (12), pp. 513- 535.

